الاهـــداء

إلى ولدى مؤنس :

أنت يابنى موضع الحب من قلبى ، ومعقد الرجاء فى نفسى ، محا الله بنور أنساك ظلمة وحشتى ، وغمر بفيض حبك كل مهجتى . وفى هذا الكتاب نفحات صادقة من الحب ، ولمعات مشرقة من الأنس ، أهديها إليك ، آية على حبى لك ، وأنسى بك ، وأملى فيك ،

والدك

محمد مصطفى حلمى

تقدمة

بقلم

الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق

إن بحوث التصوف ، وما تحتاج إليه من عناء وجهد ، ومن إلمام واسع بمصطلحات القوم التى يديرونها بينهم ، ومن إدراك دقيق يوازن بين أذواقهم الغيبية وبين آراء غيرهم من أهل النظر الخالص أو النظر المشترك ، يعد فى الحقيقة أمراً خطيراً يفتقر إلى اطراح الهوى واستعمال النّصفة والعدل فى الحكم ، ويتطلب أيضاً أن ينزل الباحث حيناً عن بعض نظراته المادية ، ليتيسر له أن يعيش آونة فى هذا الجو الروحى .

ولقد لقيت المتصوفة من قديم الدهر عنتاً شديداً ، وذلك من جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم ، وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيغ ، ولقد اضطر ابن عربى لكى يضمن لنفسه بعض السلامة والعافية أن يضع شرحاً لديوانه « ترجمان الأشواق » يبين فيه مقاصد كلامه ومراميه ، ويظهر ما خفى من معانيه ، ويعين ما التبس منها ، لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذى أراد .

لذلك كان اغتباطى عظيماً بإقدام الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى حلمى ، على كتابته فى هذا الموضوع الشائك ، الذى يبحث فى « ابن الفارض » الصوفى المصرى ، ويدرس « ابن الفارض » الشاعر المصرى الذى فتن بجمال مصر واستهوته مغانيها وربوعها إذ يقول :

وطنى مصر وفيها وطرى ولنفسى مشتهاها مشتهاها

وكان لجبل المقطم ووادى المستضعفين به من الأثر البالغ فى نفسه ما منحه بحق لقب « سلطان العاشقين » .

إن لابن الفارض مكانته الظاهرة اللامعة بين المتصوفة ، بل هو يعد فى نظرنا الصوفى المصرى الأول بلا منازع ، كما يعد رأساً لشعراء الصوفية من العرب

وقد ظفر ديوانه بما لم يظفر به ديوان آخر من تواتر الشراح والمفسرين ، وعنيت أجناس شتى من الأوربيين وغيرهم بنقل شعره إلى لغاتهم ، وما زال شعره إلى اليوم يتغناه الصوفيون ويتناشدونه فى حلقاتهم .

إن ابن الفارض لم يسلَم — كما لم يسلم غيره من المتصوفة — من طعن الطاعن عليه ، وقد انبرى له الإمام ابن تيمية وأمعن فى نقده وتجريحه ، كما تصدى له كثير من الفقهاء يتهمونه بالكفر والزندقة ؛ ولكن واضع هذا الكتاب قد وفق فى كثير من الأمر إلى أن يكشف وجه الحق عن هذه الطعون التى وجهت إلى ابن الفارض ، وأن يخلق منها تمجيداً لهذا الصوفى ورفعاً لشأنه .

إن إعجابى بالأستاذ المؤلف وتقديرى له يرجع العهد به إلى سنوات مضين منذ كان يعد هذه الرسالة الجامعية التى كان لى حظ الاشتراك فى نظرها ومناقشتها ، وكان الأستاذ موفقاً جد التوفيق فى تحليل موارد صوفية ابن الفارض التى طبعته بهذا الطابع الخاص ، كما ظهرت براعته واضحة فى بيان تأثير ابن عربى فى تلاميذه الذين تناولوا شرح ديوان ابن الفارض ، فذهبوا فى تأويل ألفاظه الصوفية إلى مذهب شيخهم ابن عربى ، وخلطوا فى ذلك بين المذهبين وهم لا يشعرون .

وفى هذا الكتاب ، الذى يعد الأول من نوعه فى العربية ، كثير من التحقيقات التى تقتضى صاحبها من الصبر والجلد قدراً لا يستهان به ، ومن أبرعها ما صنع فى تحقيق مولد ابن الفارض الذى اضطربت فيه الروايات اضطراباً ؛ ومنها تحقيقه رواية المقرى فى « نفح الطيب » ، التى تنص أن ابن عربى طلب إلى ابن الفارض أن يضع شرحاً لتائيته الكبرى ، فأجابه ابن الفارض بقوله : « كتابك المفرحات المكية [illegible] » ، وقد بين الأستاذ ما فى تلك الرواية من استحالة مادية بطريقة تحمل على الإعجاب .

ونحن إذ نهنئ المؤلف بما وفق إليه فى هذا الكتاب ، نرجو أن يديم الله توفيقه ، وأن يكون قدوة للشباب الجامعى فى البحث عن أعلام الثقافة المصرية العربية .

مصطفى عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التصوف ناحية طريفة ممتعة من نواحى الحياة الإسلامية ؛ ولكنه على ما فيه من طرافة وما يثيره فى الشعور والعقل من متاع ، لم يعن به الباحثون من الشرقيين العناية التى تكفى للكشف عن شخصياته ومذاهبه ، وعما كان لهذه الشخصيات والمذاهب من آثار قيمة فى حياة الفكر والروح . وهو لما يمتاز به من هذه الطرافة ، وما يثيره فى النفس من هذا المتاع ، قد أقبل عليه كثير من المستشرقين ، فدرسوه دراسة علمية منظمة كان من ثمراتها كثير من البحوث الخصبة القيمة، على نحو ما فعل الأساتذة : ماسينيون فى فرنسا ؛ ونيكلسون فى إنجلترة ، ونللينو ودى ماتيو فى إيطاليا ، وكثير غيرهم فى بلاد أوربا وأمريكا المختلفة ؛ فأنت إذا أردت أن تعرف شيئاً عن نشأة التصوف الإسلامى وتطوره، والعوامل التى أثرت فيه ، وأعانت على تغذيته وتنميته ، أو عن حياة رجاله العامة والخاصة ، وما كان لهم من آثار فى توجيه الحياة الدينية والروحية والعقلية والاجتماعية ، فلن توفق من ذلك إلى كثير مما كتب فى لغتنا العربية ، واصطنع فيه كاتبه المنهج العلمى الصحيح ؛ ولعل كل ما تستطيع أن تبلغه هو هذه الكتب التى تحدثك عن طبقات الصوفية حديثاً هو أدنى ما يكون إلى حديث الأساطير الخيالية منه إلى حديث الحقائق الواقعية ، وهذه الأسفار والدواوين التى خلفها أصحابها من الصوفية أو المتصوفة ، وهذه الشروح التى وضعها الشراح على هذه الأسفار والدواوين ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ، وسلكوا من مسالك التفسير والتأويل ما كان يزيد أحياناً الأمر تعقيداً ، والمعنى غموضاً وخفاء ، وما كان أحرانا ، والتصوف جزء من تراثنا الإسلامى ، أن نكون أبر به ، وأكثر إقبالا من غيرنا عليه .

على أنني لا أرمى من وراء هذا إلى إنكار ما بذله بعض الباحثين عندنا من جهود موفقة فى الكشف عن بعض نواحى الحياة الصوفية الإسلامية ، ولا إلى الغض مما لبحوثهم من قيمة علمية : فقد عكف الصديق الفاضل والزميل المحترم الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى على دراسة الصوفى المسلم الكبير محيى الدين بن عربى ، فبسط فلسفته الصوفية ، وحللها إلى عناصرها تحليلا علميًّا قيما ، وذلك فى بحثه المكتوب بالإنجليزية وعنوانه « فلسفة محيى الدين بن عربى الصوفية » فضلا عما له من بحوث أخرى نشرت بالعربية فى كل من « مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة » و « مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية » ، وكذلك عنى الأستاذ الدكتور زكى مبارك بالإبانة عن أثر التصوف فى الأدب والأخلاق . ولكن عناية هذين الباحثين ببعض نواحى التصوف الإسلامى وشخصياته ، ليست شيئاً بالقياس إلى ما ظفرت به الحياة العقلية أو الأدبية أو السياسية فى الإسلام من جهد الباحثين ، ووفرة مؤلفاتهم فيها .

ولعل السبب الذى يرجع إليه إهمال الباحثين منا لدراسة التصوف الإسلامى ، هو اعتقاد الكثيرين أن أذواق الصوفية وأحوالهم لون من ألوان الهذيان ، وأن مذاهبهم وأقوالهم ضرب من الكلام الذى لا معنى له ولا غناء فيه . ولو قد التزم الذين يرون هذا الرأى حدود القصد والاعتدال فى أحكامهم ، وأنعموا النظر فيما أثر عن الصوفية من أذواق وأحوال ، وما خلفوه من آثار وأقوال ، ودرسوا هذا كله على ضوء المنهج العلمى الصحيح ، لغيروا رأيهم فى التصوف والصوفية ، ولوجدوا أن المواجيد والأذواق ، والرموز والإشارات التى حفلت بها الآثار الصوفية منظومة ومنثورة ، إنما هى تعبيرات عن حياة روحية راقية ، وحالات نفسية رائعة ، ومذاهب منطوية على كثير من المبادئ والمعانى ليست أقل قيمة من كثير من المذاهب الفلسفية الخالصة المؤسسة على النظر العقلى والاستدلال المنطقى ، ولتبينوا أن للعاطفة منطقاً ، كما أن للعقل منطقاً ، وأن منطق العاطفة قد ينتهى بالخاضع له إلى نتائج لها طرافتها وجدتها اللتان لا تقلان عن طرافة النتائج التى ينتهى إليها منطق العقل وجدتها .

وإذا كانت تلك هى الحال التى انتهت إليها دراسة التصوف الإسلامى عندنا ، وكان لابد لنا من أن نعنى بهذه الدراسة عنايتنا بغيرها من الدراسات العلمية والفلسفية والأدبية . فقد اتخذت من عمر بن الفارض — وهو واحد من هؤلاء الصوفية الذين أذعنوا لسلطان العاطفة — موضوعاً لهذا البحث الذى حاولت فيه أن أكشف عن سيرة الرجل وحياته العامة والخاصة ، وما يتصل بهذه من أحوال وبتلك من أحداث ، وعن حقيقة حبه الذى قضى حياته هاتفاً به مرتلا لأنشودته . وعما عسى أن يكون فى هذا الحب من المعانى الروحية والمثل الأخلاقية والمنازع الفلسفية ، لا سيما أن حب هذا الشاعر الصوفى مسألة من أدق المسائل وأشدها غموضاً وتعقيداً . اختلف الناس حولها فى زمان الشاعر نفسه ، واختلفوا فيها بعد زمانه ، وما يزالون مختلفين فيها حتى الآن ، يقرأ بعضهم ديوانه على أن الشاعر يتغنى فيه حبًّا إنسانيًّا يدور حول معشوقة آدمية ، ويقرؤه بعضهم الآخر على أن ناظمه إنما يهتف فيه بالحب الإلهى ويرمى من وراء رموزه وإشارته وكناياته إلى المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية . ومن هنا جاء بحثى فى ثلاثة أقسام :

١ — تناولت فى القسم الأول ترجمة ابن الفارض وأطوار حياته ، وروح العصر الذى عاش فيه ، ومكانه فى بيئته ومبلغ تأثره بعصره . وحللت فيه حياته الصوفية ، وما اختلف عليها من الأحوال النفسية والأذواق الروحية ، وما أخذ به نفسه من رياضات ومجاهدات كانت سبيله إلى تصفية نفسه وتنقية قلبه على الوجه الذى مكنه من التحقق بالوصول إلى محبوبه الأسمى وشعوره بالفناء فيه والاتحاد به . وبينت فى هذا القسم أيضاً آثاره التى يتألف منها ديوانه الضئيل الجليل معاً ، وما أثاره هذا الديوان من حركات الشرح والتأويل فى البيئات الصوفية الإسلامية ، ومن حركات الترجمة والنقل والتعليق فى البيئات العلمية الأوربية ، وما انتهى إليه أمر هذا الديوان من حكم على صاحبه بالإلحاد والخروج على تعاليم الكتاب والسنة تارة ، ومن دفاع عنه وتبرئة له مما نسب إليه من حلول واتحاد وغيرهما من المذاهب التى تنافى روح الإسلام وتخالف تعاليمه تارة أخرى .

٢ — وعرضت فى القسم الثانى لحب ابن الفارض وطبيعته ، والكشف عما إذا كان هذا الحب كله حبًّا إلهيًّا ، أم حبًّا إنسانيًّا ، أم هو مزاج من الحبين . وهنا انتهيت إلى أنه لا يبعد أن يكون الشاعر الصوفى قد بدأ حياته العاطفية إنساناً كغيره من الناس ، يحب مثلهم الجمال الإنسانى ، ثم أصابه ما يصيب العشاق فى بعض الأحيان من إخفاق وخيبة أمل ، فإذا هو يتسامى بحبه عن الجمال الإنسانى المعين إلى الجمال الإلهى المطلق حيث وجد فيه عزاء قلبه وراحة روحه وسعادته التى لا تعدلها سعادة . ثم بينت بعد هذه الأطوار النفسية والصوفية التى تعاقبت على نفس الشاعر فى حبه الإلهى ، وكيف كان فى أول عهده بالحياة الروحية ما يكونه عادة كل سالك فى بداية الطريق من تعلق بنفسه ، وخضوع لسلطان حسه ، واندفاع مع إشباع الرغبات والحظوظ ؛ ثم كيف أخذ نفسه بالمجاهدة والرياضة حتى خلص شيئاً فشيئاً من سلطان النفس ونير المادة ، وحتى زهد فى كل شىء إلا فى شىء واحد هو المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية ، التى انتهى من إقباله عليها وإعراضه عما سواها إلى شعوره بالفناء فيها وشهوده الوحدة الذاتية التى تنتفى معها التفرقة بين المحب والمحبوبة .

٣ — وعكفت فى القسم الثالث على دراسة حب شاعرنا من الناحية الفلسفية ، فحاولت أن أحلله إلى عناصره الصوفية التى تنطوى على بعض المعانى الميتافيزيقية والأخلاقية وما إلى ذلك مما انتهيت فيه إلى تقرير أن الأذواق والمواجيد الروحية ، والرياضات والمجاهدات الصوفية ، على الرغم مما تتصف به من صفات الذاتية أو الشخصية ، يمكن أن تشتمل فى قرارها على بعض النزعات الفلسفية والمثل الأخلاقية ؛ فقد أبنت فى هذا القسم عن علاقة الحب والمعرفة عند ابن الفارض ، واجتهدت فى أن أظهر كيف أن لهذا الشاعر نظرية ، أو بعبارة أدق نظرة فى المعرفة ، كما عرضت الصور المختلفة لمذهبه فى الوحدة : وحدة المحب والمحبوبة ، وحدة الله والعالم ، وهما هاتان الوحدتان اللتان أطلقت عليهما اسم « وحدة الشهود » تمييزاً لهما عما يعرف عند الفلاسفة وبعض الصوفية باسم « وحدة الوجود » (وذلك لأن ابن الفارض لم يكن يدرك هذه الوحدة إلا فى حال الشهود

فقط) ؛ ووحدة الخلق كما تمثلت منذ الأزل فى الحقيقة المحمدية التى يسميها ابن الفارض « بالقطب » وبغير القطب من الأسماء التى سنعرض لها فى موضعها من هذا البحث ، ووحدة الأديان التى تتضمن أرقى مبادئ الحب والتعاطف والإخاء والمساواة . وأخذت نفسى فى هذا كله بإظهار ما عسى أن يكون من ابن الفارض موافقاً لتعاليم الكتاب والسنة أو مخالفاً لها ، وماذا كان فى كل ما صوره الشاعر فى ديوانه عامة ، وفى قصيدتيه الحافلتين « التائية الكبرى » و « الخمرية » خاصة ، من تأثر ببعض العناصر الأجنبية ، ومن سبق إلى تقرير بعض النظرات الفلسفية التى اهتدى إليها من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين الذين اصطنعوا العقل بقدر ما اصطنع هو الذوق .

وقد عقبت على هذه الأقسام الثلاثة بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث فى حياة ابن الفارض وأذواقه وآثاره ومذهبه فى الحب ، كما عرضت للمصادر التى يمكن أن يكون قد استقى منها بعض عناصر مذهبه ، ولما عسى أن يكون لسيرة ومذهب كسيرة ابن الفارض ومذهبه من قيمة وأثر فى الحياة من الناحيتين الروحية والعلمية .

تلك إلمامة موجزة بأهم العناصر التى تتألف منها أقسام هذا البحث الذى تقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ونوقشت فيه بين يدى الجمهور أمام لجنة الحكم المؤلفة من حضرات الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والأستاذ أحمد أمين ، والدكتور طه حسين ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور بول كراوس ، فى يوم السبت ٢ مارس سنة ١٩٤٠ ، وحصلت به على درجة الدكتوراه فى الآداب (قسم الفلسفة) مع مرتبة الشرف . ولعلى بهذا أكون قد قمت بجزء من الواجب علينا نحو هذه الناحية المغمورة من نواحى حياتنا المصرية الإسلامية وهى الناحية الروحية ، لا سيما أن ابن الفارض بحكم صوفيته من ناحية ، وبحكم مولده ونشأته وإقامته ووفاته فى مصر من ناحية أخرى ، يعد بحق ممثلا للتصوف الإسلامى المصرى فى طور من أطواره : فالكشف عن حياته ، وعن العوامل التى أعانت على تكوين شخصيته الصوفية ، وتأليف

مذهبه فى الحب الإلهى ، إنما هو فى الحقيقة كشف عن ناحية من نواحى حياتنا المصرية فى أحد عصورها ، وعن الطابع الذى طبعت به هذه الحياة فى ذلك العصر . وإذا كنت أتمنى شيئاً فهو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تتضافر فيه جهود الشباب الجامعيين عندنا على هذه الناحية القيمة المغمورة معاً من نواحى تراثنا الإسلامى ، فيوسعونها درساً وبحثاً على وجوه تكشف عما تقوم عليه ، وترمى إليه من معانى الحق والخير والجمال .

ولا يسعنى بهذا كله إلا أن أسجل هنا فخوراً ما غمرنى به أستاذى الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق من عطف جميل ، وتشجيع نبيل ، وإرشاد سديد ، مذ وقع اختيارى على موضوع هذا البحث ، وطوال السنوات التى اشتغلت به فيها حتى أتممته تحت إشرافه . فكان ثمرة من ثمرات علمه وفضله ، ونفحة من نفحات قلبه وعقله . ولا يسعنى أيضاً إلا أن أسجل معتزًّا ما أفاضه على أستاذى الجليل الدكتور طه حسين من عناية بى ، ورعاية لى ، وحدب على ، مما كان من غير شك عوناً صادقاً على الاستمرار فى هذا البحث وإنجازه وتقديمه للمناقشة . هذا إلى ما تركه فى نفسى أستاذى الجليل الدكتور منصور فهمى من أثر جميل ، وما قدمه من تشجيع محمود عندما كنت فى مستهل عهدى بهذا البحث .

وإن أنس لا أنسى ما كان للمغفور له أحمد زكى (باشا) علىّ من فضل الإرشاد إلى كثير من المراجع الخطية والفوتوغرافية التى اشتملت عليها خزانة كتبه الخاصة ؛ فإلى روحه الكريم أبعث بأصدق التحيات . وعلى جدثه الطاهر أستمطر أطيب الرحمات . وكذلك أذكر عون الأستاذين لويس ماسينيون ، وكارلو نلّينو . فقد أرشدنى كل منهما إلى كثير من مراجع البحث التى كان لها أثر كبير فى تجلية بعض الغامض ، وتحقيق بعض المسائل . فإليهما أصدق شكرى ، ولا يفوتنى أن أقدم أخص عبارات الشكر والثناء إلى الدكتور أبى العلا عفيفى على ما كان له من أثر محمود فى تحقيق كثير من المسائل الدقيقة التى تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع هذا البحث . وما أبداه من ملاحظات سديدة على ما أطلعته عليه من فصوله . ومن واجبى بعد هذا كله أن أسجل ما كان للصديق

الكريم والأخ العزيز كامل محمد على من فضل فى تهيئة الظروف التى أعانت على إخراج هذا الكتاب ونشره ، فله منى أصدق الشكر وأطيب الحمد .

أما الذين أعانونى على قراءة المراجع ، وكتابة البحث ، فكانوا منى العين التى تقرأ ، واليد التى تكتب ، فأظنهم فى غير حاجة إلى أن أحمد لهم صنيعهم ، أو أن أشكر لهم ما بذلوا من جهد ، واحتملوا من مشقة وعناء ، والله وحده قادر على أن يجزى الكل عنى خير الجزاء .

محمد مصطفى حلمى

إِنَّ الغَرَامَ هُوَ الْحَيَاةُ فَمُتْ بِهِ ... صَبًّا فَحَقُّكَ أَنْ تَمُوتَ وَتُعْذرا

قُلْ لِلَّذِينَ تَقَدَّمُوا قَبْلِي وَمَنْ ... بَعْدِي وَمَنْ أَضْحَى لأَشْجَانِي يَرَى

عَنِّي خُذُوا ، وَبِيَ اقْتَدُوا وَلِيَ اسْمَعُوا ... وَتَحَدَّثُوا بِصَبَابَتِي بَيْنَ الْوَرَى

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا ... سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى

وَأَبَاحَ طَرْفِي نَظْرَةً أَمَّلْتُهَا ... فَغَدَوْتُ مَعْرُوفاً وَكُنْتُ مُنَكَّرا

فَدُهِشْتُ بَيْنَ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ ... وَغَدَا لِسَانُ الْحَالِ عَنِّيَ مُخْبِرا

فَأَدِرْ لِحَاظَكَ فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهِ ... تَلْقَى جَمِيعَ الْحُسْنِ فِيهِ مُصَوَّرا

لَوْ أَنَّ كُلَّ الْحُسْنِ يَكْمُلُ صُورَةً ... وَرَآهُ كَانَ مُهَلِّلاً وَمُكَبِّرا

« ابن الفارض »